

**الآتساع في خطاب المفسرين حول صلة هاروت وماروت بالسحر
(البقرة 102/2)**

**The extent of the commentators' discourse on the relationship
of Harut and Marut with magic (Al-Baqarah 2:102)**

د. محمّد النوي

**كلية الآداب
جامعة القيروان- تونس**

mednaoui2010@gmail.com



الأتساع في خطاب المفسرين حول صلة هاروت وماروت بالسحر (البقرة 2/102)

د. محمد النوي

الملخص:

يتناول المقال طرائق تعامل المفسرين مع الإشارة القرآنية إلى علاقة الملكين هاروت وماروت بالسحر في الآية 102 من سورة البقرة. وهي طرائق نابذة أساسا من الحرج الكامن في الربط بين الملائكة والسحر. وقد قامت جهود المفسرين على الأتساع في قراءة الآية، وعلى التصرف في تركيبها النحوي، وعلى الاستنجد بقصص الأوائل التي تروي أصول السحر. ولئن اعتنى المقال ببيان تشابه القصة الإسلامية مع قصص الديانات السابقة، فإنه قد نظر كذلك في صلة مظاهر الأتساع برغبة المفسر في الملاءمة بين المعاني المبثوثة في كامل النص القرآني.

الكلمات المفاتيح: السحر، هاروت وماروت، الملائكة، العصمة، آدم، قصة، اليهودية، الزرادشتية

Abstract

The article deals with the methods adopted by commentators in relation to quran's indication that the Harut and Marut were involved in magic in verse 102 of Surat al Baqara (2). These are methods that stem from the inherent embarrassment that resides in the relationship of angels to magic. The efforts of the exegetes were based on another "reading" of the verse, on changing its grammatical structure and on invoking the accounts of the ancients which relate the origins of magic. And if the article was concerned with explaining the resemblance of the Islamic narrative with the narratives of previous religions, it also looked at the aspects of amplification in relation to the will of the exegete to reconcile the dispersed meanings throughout the Quranic text.

Keywords: magic, Harut and Marut, angels, infallibility, Adam, story, Judaism, Zoroastrianism.

1- مقدّمة:

يعدّ السّحر ممارسة شائعة بين الشعوب والحضارات، عابرة للعصور. ورغم أنّ الأديان قد حرّمتها، والحدّات قد استبعدتها، فإنّ السّحر لا يزال إلى اليوم يمثل حلّاً من بين الحلول التي يلجأ إليها المرء حين تنسّد به السّبيل، أو يدهمه الشرّ. ولا يزال السّحر كذلك يمثل خطراً يتقيه الناس وإن صرّحوا علناً بأنهم لا يؤمنون به¹. ولعلّ خصيصة السحر المتمثلة في وقوعه في منطقة وسطى بين العلم والدين، بما أنه يدّعي التأثير في قوانين الطبيعة فيلتبس بالعلم، وبما أنه يستعين بالأرواح فيلتبس بالدين، لعل هذه الخصيصة قد جعلت من عملية تعريفه عملاً شاقاً وغير نهائي، ولذلك مال أغلب دارسي السّحر إلى النظر في شروطه بدل النظر في ماهيّته². ولئن سعى العديد من الدارسين إلى تمييز السحر عن العلم بوصف السّحر "علماً مزيفاً"، وإلى تمييزه عن الدين بوصف السّحر "ديناً بدائياً"، فإنّ عدداً آخر من الدارسين قد ذهبوا إلى أنّ الاعتقاد الديني قد سمح باستمرار الممارسة السّحرية، أو "السّحر الديني". وهو أمر يبدو لنا جلياً في الثقافة الإسلامية من خلال الاعتماد على القرآن لإحداث آثار سحرية³.

إنّ القرآن -الذي تنزّل في بيئة تؤمن بالسّحر وتُرجع إليه تفسير الظواهر التي يعجز القوم عن تفسيرها- قد ذكر السّحر ذكراً ينمّ عن فعاليته. ولعلّه من الطريف أن يلاحظ الباحث أنّ دعوة النبيّ قومه إلى العقيدة الجديدة قد ردّها معاصروه إلى السّحر. فكان النبيّ عندهم حيناً ساحراً يتّقون شرّه، وحيناً مسحوراً يطلبون له الطبّ. ومع ذلك لم ينف القرآن السّحر، ولم يُبطل الاعتقاد فيه، وإن كان قد حمله حيناً على التخيل، وحيناً على الحقيقة، وروى قصّة موسى والسّحرة رواية على وجه ابتغى من ورائها بيان تفوّق النبوة على السّحر، وهيمنة المعجزة على أفعال السّحرة. فإذا أضفنا إلى ذلك خلوّ القرآن من حدّ يقع على من يتعاطى السّحر، أمكن لنا القول إنّ القرآن قد حافظ على منزلة السّاحر الملتبسة بين القبول والرّفص.

ولئن كانت جلّ الآيات في السّحر قد وردت إمّا في سياق قصصي، وإما في سياق حجاجي، فإنّ الآية 102 من سورة البقرة قد تميّزت بأمرين: أولهما التعريف بمصدر نشأة السحر، وثانيهما بيان أثر السحر في النّاس.

1- لا نصدّق السحر عقلياً لكننا نخاف منه سلوكياً، أورد ديفيز التجربة التالية: أجريت تجربة على أطفال حول دمية سحرية، فأجاب أغلبهم أنهم لا يعتقدون حقيقة أنها تتحرك من تلقاء نفسها، لكن عندما تم تحريكها مغناطيسياً أبدى أغلبهم مشاعر الخوف. واستنتج قائلاً: "نحن جميعاً فنكراً تفكيراً سحرياً في مرحلة ما. وتتأثر طريقة تعاملنا مع الأمر في الكبر بعوامل الماضي والمجتمع والثقافة والتعليم والتجارب الشخصية". أوين ديفيز: السّحر، تعريب رحاب صلاح الدين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ط 1، 2014، ص 109-110.

2- لاحظ مارسال موسى صعوبة تعريف السحر من خلال ماهيّته، فاقترح تعريفه من خلال عناصره: الساحر (le magicien) والطقوس المرافقة لعملية السّحر (les actes) والتمثيلات المشكّلة للاعتقاد في نجاعة الممارسة السحرية (les représentations). انظر:

Mauss Marcel: Sociologie et Anthropologie, 13^{eme} ed Quadrige 2013, pp 3-141 (esquisse d'une théorie générale de la magie).

3- ابن الحاج الكبير (محمد): تاج الملوك، نشر محمد علي المليحي، مصر 1316 هـ، فصل في تشقيق الأسماء وتصريفها، ص 26-42، كذلك البوني (أحمد بن علي): شمس المعارف الكبرى، المكتبة الشعبية، بيروت، د.ت. كذلك:

Donaldson B A: The Koran as magic, in The Moslem World, vol 27, 1937 Pp. 254-66.

تقول الآية: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/102).

إنَّ جِلَّ المفسرين قد اتخذوا هذه الآية مناسبة لتفصيل القول في السحر، فقالوا في نشأته، وفي مادته، وفي حكمه، وفي منافعه ومضارّه... وهو أمر طبيعي بما أنها الآية الأولى في السحر التي تعترض المفسر قديما وهو يُعمل أداة التفسير في القرآن على ترتيب التلاوة. ويلاحظ الباحث أنَّ جميع المفسرين قد اعتنوا أيما عناية بهذه الآية مقارنة بآيات القرآن الأخرى مطلقا أو مقارنة بسائر الآيات في السحر. فهذا الطبري قد أنفق في الآية ثمانية وعشرين صفحة من تفسيره¹، وأنفق الرازي فيها حوالي عشرين صفحة²، أما القرطبي فقد خصَّ الآية بأربع وعشرين مسألة³.

ويمكن القول إنَّ هذا التوسُّع في مقالات المفسرين في الآية 102 من سورة البقرة 2 عائد إلى الإشكاليات الكثيرة المتشعبة التي تثيرها الآية، مثل الجدل اليهودي الإسلامي حول وظيفة سليمان: ملك هو أم نبي؟ ومثل إشكالية الفرق بين المعجزة والسحر، ومثل إشكالية السحر بين الحقيقة والخيال، ومثل الاختلافات الفقهية في حكم الساحر... لكنَّ الراجح أنَّ الإشكالية المركزية التي انشغل بها المفسرون تدور حول إقحام "هاروت وماروت" في بيان أصل ممارسة السحر. لذلك اخترنا التركيز على هذه الإشكالية دون سواها.

لقد تبين لنا من خلال مقالات المفسرين حول هاروت وماروت أنَّ اتجاهين متناقضين قد تجاذبا التفسير الإسلامي في هذا الباب: يتمثل الاتجاه الأول في تخلص هاروت وماروت من شبهة ممارسة السحر أو تعليمه، وفيه يحضر الاتساع في خطاب المفسرين بوصفه اتساعا في استخدام اللغة وقواعد التركيب. ويتمثل الاتجاه الثاني في استيعاب التراث السابق على الإسلام في فهم دور هاروت وماروت في ممارسة السحر، وفيه يحضر الاتساع في خطاب المفسرين بوصفه اتساعا في رقد المعنى القرآني بقصص الأوائل.

2- الاتساع في استخدام اللغة أو إنكار صلة الملائكة بالسحر:

واجه المفسرون حرجا شديدا في قبول صلة الملكين هاروت وماروت بالسحر، وهو أمر طبيعي لأنَّ صورة الملائكة ووظائفهم لا تستقيم وتعليم السحر. فهذه الصورة سواء نظرت فيها في القرآن أو في التفاسير قائمة على عصمة الملائكة أولا، وعلى تمحُّضها للخير وطاعة الله ثانيا، وعلى إقامتها في السماوات لا في الأرض ثالثا

1- الطبري (محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتعليق محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001، ج1، ص510-538.

2- الرازي (فخر الدين): التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990، ج3 ص ص 184-202.

3- القرطبي (أبو عبد الله): الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص29-39.

عدا الملائكة الكاتبين لأفعال الإنسان¹. وهي إن تنزلت إلى الأرض فإنما لتبليغ الرسالات لا غير². لقد حوّر القرآن بنية القوى المفارقة، فكانت الملائكة خيرا محضا، وكانت الأبالسة شرًا محضا، وتأرجح الجنّ بين عالم السماء وعالم الأرض، وبين الخير والشرّ³. وبناء على ما تقدّم، فإنّ إنزال السّحر على الملكين، وتعليمهما السّحر للنّاس، ووصف نفسيهما بأنهما "فتنة" يجعل هذين الملكين أقرب إلى صورة الأبالسة منهما إلى صورة الملائكة⁴. وفي هذا السياق يتنزّل قول القرطبي معلقًا على قصّة نزول الملائكة بالسّحر: "هذا كلّه ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره، لا يصحّ منه شيء، فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه، وسفراؤه إلى رسله ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْمَلُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾. وأما العقل فلا ينكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلّفوه، ويخلق فيهم الشّهوات، إذ في قدرة الله تعالى كلّ موهوم، ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء، ولكنّ وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع، ولم يصحّ"⁵.

تخلّص المفسّرون من هذا المأزق الذي أوقعهم فيه النصّ القرآني بطريقتين كيّستين، تتمثّل الأولى في القراءة على غير رسم المصحف، وتتمثّل الثانية في التصرف في تركيب الآية.

أ- القراءة البديلة: لقد أتاحت نشأة القرآن في بيئة شفاهيّة، وبدائية الخطّ العربي الخالي من النقط والإعجام، وتحمل الصحابة للقرآن بالتعويل أساسا على الذاكرة⁶، للمفسّرين إمكانية الاستنجاد بقراءات مخالفة لنصّ المصحف لتستقيم المعاني التي يرومون إرساءها⁷. وفي هذا الإطار، يلاحظ الناظر في التفاسير

1- ﴿والملائكة يسبحون بحمدي ربهم ويستغفرون لمن في الأرض...﴾ (الشورى 5/42) و﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء/21) و﴿ما نُنزّل الملائكة إلا بالحقّ﴾ (الحجر/8) و﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئننين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ (الإسراء/95) و﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحرير/66) و﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرِيمًا كَاتِبِينَ﴾ (الانفطار 82/10-11).

2- ﴿ما نُنزّل الملائكة إلا بالحقّ﴾ (الحجر/8).

3- محمّد النوي: الوحي من خلال مصنفات السيرة النبوية قديما وحديثا، نشر مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المغرب-لبنان، ط 1، 2018، الفصل الأول من الباب الثالث: في العلاقة بين محمّد والمفارق، ص 323-374، كذلك بلقيس رزيقي: الملائكة والجنّ والشياطين في كتب تفسير القرآن، الدار التونسية للكتاب، ط 1، 2017.

4- نلاحظ تشابها بين دور فتنة الناس المؤكّل إلى هذين الملكين ودور غواية الناس المؤكّل إلى إبليس في القرآن: ﴿قال فِعْبَرْتِكَ لأَعُوْبِيْهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص 82/38) و﴿لَأَزِيْنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْأَعُوْبِيْهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر/39)، راجع كذلك مادة غوي ضمن محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ط 2، 1988.

5- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج 2، ص 36. وقد احتج الرازي لذلك بوجوده: "أحدها أنه لا يليق بالملائكة تعليم السحر، وثانيها كيف يجوز إنزال الملكين مع قوله ﴿ولو أنزلنا ملكا لفضي الأمر ثم لا يُنظرون﴾ " وثالثها لو أنزل الملكين لكان إما أن يجعلهما في صورة الرجلين أو لا يجعلهما كذلك، فإن جعلهما في صورة الرجلين مع أنهما ليسا برجلين كان ذلك تجهيلا وتليسا على الناس وهو غير جائز، وإن لم يجعلهما في صورة الرجلين قدح ذلك في قوله تعالى: "ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا". الرازي (فخر الدين): التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ج 3، ص 199.

6- السجستاني(ابن أبي داود سليمان): كتاب المصاحف، صحّحه ووقف على طبعه آرثر جفري، المطبعة الرحمانية، مصر، ط 1، 1936.

7- راجع: المصحف وقراءاته، إعداد مجموعة من الباحثين بإشراف عبد المجيد الشرفي، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، المغرب-لبنان، ط 1، 2016. وقد وردت القراءة البديلة التي نحن بصدها ضمن ج 1، ص 71.

الإسلامية لجوء بعض المفسرين إلى قراءة "الملكين" على هذا الوجه: "الملكين"، فيكون الخبر القرآني حينئذ دالاً على السحر بوصفه ممارسة إنسانية بحتة لا شأن للملائكة بها. وقد حاولنا تتبع نشأة هذه القراءة فوقفنا على خلوة تفسير مقاتل بن سليمان (ت150 هـ) منها¹، وحضورها في تفسير الفراء (ت204 هـ) حضوراً يدل على عدم شهرة هذه القراءة: ف"الفراء يقرؤون الملكين من الملائكة، وكان ابن عباس يقول: الملكين من الملوك"². أما الطبري (ت310 هـ) فلم يذكر هذه القراءة رغم استناده إلى ابن عباس في تخلص الملائكة من فتنة تعليم السحر³. وهي قراءة قد استبعدها الرازي (ت606 هـ) وعدّها من القراءات غير المشهورة أو غير المتواترة⁴، وأقرّها القرطبي (ت671 هـ)⁵ وابن كثير (ت774 هـ)⁶.

يبدو أنّ المفسرين قد لجؤوا إلى هذه القراءة غير المتواترة لسببين: أولهما تخلص الملائكة من الشر والكفر والفتنة، وثانيهما غرابة اسمي هذين الملكين: هاروت وماروت. وهي غرابة نجمها في عدم قياس اسميهما على أسماء الملائكة عند الساميين أي تلك الأسماء المضافة إلى الله "ايل" كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل. وهو ما يمكن أن نستفيده من أقوال المفسرين "كانا علجين أقلفين ببابل" و"علجين كانا ببابل ملكين". فالعلاج والعلوج تسمية أطلقها العرب على الأعاجم. وهي غرابة تتجلى كذلك في عدم قياس اسميهما على أسماء العلم في العربية، وقياس اسميهما على أسماء الأعاجم كسابور وقابوس، وهما من أسماء ملوك الأعاجم. ويزداد هذا الأمر رسوخاً إذا علمنا أنّ هذه الصيغة في أسماء الاعلام قد أطلقها القرآن على الملوك لا على الملائكة، نعني طالوت ملك بني إسرائيل وجالوت ملك الجبابرة⁷.

ب- التصرف في تركيب الآية: لجأ جلّ المفسرين إلى التصرف في تركيب الآية لإخراج الملكين من باب السحر. وهو تصرف تعلق بمكونات كثيرة من تراكيب الآية. وقد اخترنا في ما يلي نموذجاً من تفسير القرطبي،

1- مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل، تحقيق عبد الله محمود شحاتة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت-لبنان، ط1، 2002. ورغم خلوة تفسير مقاتل من هذه القراءة، فإننا نقف على ما يفيد الحرج من وجود الملكين في الأرض في قوله: "يتعلمون السحر من الشياطين والفرقة من هاروت وماروت" ج1 ص127.

2- الفراء (يحيى بن زياد): معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983، ج1، ص64. ونحن نرى في استخدام الفراء لفظ "يقول" منسوباً إلى ابن عباس بدل لفظ "يقرأ" الدال على القراءة دليلاً إضافياً على عدم شهرة هذه القراءة. وقال الرازي: "قرأ الحسن ملكين بكسر اللام وهو مروى عن الضحاک وابن عباس، فقال الحسن كانا علجين أقلفين ببابل يعلمان الناس السحر، وقيل: كانا رجلين صالحين من الملوك. والقراءة المشهورة بفتح اللام... وقراءة الملكين بفتح اللام متواترة". ج3، ص195.

3- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج1، ص519: "اختلف أهل العلم في تأويل "ما" التي في قوله "وَمَا أُنزِلَ عَلَي الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ"، فقال بعضهم: معناه الجحد وهي بمعنى لم، حدثني محمد بن سعد قال حدثني أبي قال حدثني عمي قال حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَي الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾. فإنه يقول: لم ينزل الله السحر.

4- الرازي (فخر الدين): التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ج3، ص195.

5- "قرأ ابن عباس وابن أبزى والضحاک والحسن: "الْمَلَكَيْنِ" بكسر اللام. قال ابن أبزى: هما داود وسليمان. ف"ما" على هذا القول أيضاً نافية، وضَعَفَ هذا القول ابن العربي وقال الحسن: هما علجان كانا ببابل ملكين" القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص37.

6- ابن كثير: تفسير القرآن الأعظم، ج1، ص238-239.

7- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ البقرة 247/2 و﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ البقرة 250/2. وراجع الطبري: جامع البيان، ج2، ص718-754.

وفيه يقول: " وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ " " ما " نفي، والواو للعطف على قوله " وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ " وذلك أنّ اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر، فنفى الله ذلك. وفي الكلام تقديم وتأخير، التقدير " وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ، وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ "، فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله: " وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا " هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم،... " يُعَلِّمَانِ " بمعنى " يُعَلِّمَانِ "، كما قال " ولقد كرّمنا بني آدم " أي أكرّمنا... والضمير في يُعَلِّمَانِ لهاروت وماروت. وفي " يُعَلِّمَانِ " قولان، أحدهما: أنه على بابه من التعليم. الثاني: أنه من الإعلام لا من التعليم، ف يُعَلِّمَانِ بمعنى يُعَلِّمَانِ، وقد جاء في كلام العرب تَعَلَّمَ بمعنى اَعْلَمَ، ذكره ابن الأعرابي وابن الأنباري. قال كعب بن مالك:

تعلّم رسول الله أنك مدركي وأن وعيدا منك كالأخذ باليد

وقال القطامي:

تعلّم أن بعد الغي رشدا وأن لذلك الغي انقشاعا

وقال زهير:

تعلّمن ها لعمر الله ذا قسما فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك"¹.

يتعلّق الاتساع في مقالة المفسّر بالتصرّف في تركيب الآية وفي ترتيب مكوّناتها تصرّفًا غايته تحوير دلالة الآية، وذلك بـ:

- حمل " ما " الموصولة الدالة مع صلتها على المفعولية للنواة " يعلمون ": " يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ " على النفي، فيكون المعنى حينئذ: يعلمون الناس السحر ولم ينزل (السحر) على الملكين.

- تغيير موقع المقطع " وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ " من وسط الآية إلى بداية الآية: وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ "، فيكون المعنى حينئذ متعلّقًا بحجاج اليهود حول استخدام سليمان السحر من عدمه، وحول استعانته بسحر جبريل وميكائيل من عدمه. وبالتالي فإن التقديم والتأخير لا يتعلّق بعناصر من الجملة أو من التركيب وإنما هو تقديم وتأخير لجُمْلٍ برمتها أي تغيير في ترتيب النصّ. ولا شكّ في أنّ مثل هذا الصنيع يعصف بمقالة البيان القرآني ولكنّه يخدم في الآن ذاته عقيدة عصمة الملائكة. ولعلّ وعي القرطبي بعمق التصرّف في تركيب الآية جعله ينعى هذا التصرّف بالتأويل، وذلك في قوله: " هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل ".

- إنّ التصرّف في ترتيب جمل الآية ومكوّناتها الذي انتحاه المفسّرون قاد إلى ولادة جملة جديدة هي: " وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ". فيكون حينئذ " هاروت وماروت " بدل المثني

1- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج 2، ص 35-38. والتصرّف في حجم الخط من عندنا. راجع كذلك الطبري: جامع البيان، ج 1، ص 519-520.

من الجمع (الشياطين) عوض أن يكون بدل المثنى من المثنى (الملئكين)، فهاروت وماروت من الشياطين لا من الملائكة، أما الملكان المذكوران في الآية فهما "جبريل وميكائيل". وهو ما لا يستقيم لأن التقديم والتأخير الذي أجراه القرطبي على نص الآية يقود إلى القول إن تعليم الشياطين للسحر يكون مرفوقاً بالهداية: "إنما نحن فتنة فلا تكفر" لا بالغواية التي يختص بها الشيطان عادة.

- حمل "يعلِّمان" على معنى الإعلام لا على معنى التعليم في المقطع: "وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمُرءِ وَزَوْجِهِ". وهو تصرف في دلالة الصيغة: أعلم بدل علم أي الاستعاضة عن فعل بأفعل، وقد استعان القرطبي في ذلك باستخدام "تعلم" بمعنى "اعلم" في الشعر. صحيح أن الرواية عن الشعراء قد وردت باستخدام "تعلم" بمعنى "اعلم"، لكن يمكن الاعتراض على هذا الضرب من الاتساع بجملة من الظواهر لا بد من الانتباه إليها: منها أن ذلك لم يرد إلا في صيغة الأمر، ومنها أن هذا الاستعمال قد يتعلّق بضرورة وزنيّة، ومنها أن "يعلِّمان" في الآية قد تلاها الفعل "يتعلّمون": "يُعَلِّمَانِ....فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا" وهو ما يؤكد أن المعنى يدلّ على التعليم لا على الإعلام¹. ومهما يكن الأمر، فإن حمل التعليم على الإعلام كانت غايته تخليص الملائكة من فتنة تعليم السحر للبشر. وهذا يدلّ على أن المفسّر لا زال يحاور البنية الأصليّة للآية. فهو بعد أن بذل جهداً كبيراً في تغيير رتبة الجمل وانتهى إلى أن الأمر يتعلّق بالشياطين لا بالملائكة، يعود إلى عدّ الأمر متعلّقاً بالملائكة، فيتلفّف في تخريج علاقتها بالسحر، وينقلها من باب التعليم إلى باب الإعلام.

إنّ هذا الاضطراب، وهذه الطرائق المختلفة في قراءة الآية، مردّها إلى الحرج الكبير الذي يلقاه المفسّر في نسبة السحر أي الشرّ إلى الملائكة. وهو حرج نابع من وعي المفسّر بعدم تناسق المعاني القرآنية المتعلقة بالملائكة في عمومها مع هذه الآية. فالمفسّر إذ يتناول أي القرآن فإنما يبني نظاماً من العقائد والأحكام، والسحر مسألة حكميّة اعتقادية في أن. وقد أعى المفسّرين والفقهاء أمره لأن القرآن لم يفصل فيه القول. ولعلّه من الطريف أن نقارن بين الحرج الشديد الذي يلقاه المفسّر في تحديد هويّة هاروت وماروت وصلتهما بالسحر، وبين استثمار الشاعر للخبر عن هاروت لبناء معنى شعري طريف، وذلك في قول بشار بن برد يصف حديث صاحبتة: (مجزوء الكامل)

وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
جنيّة إنسية أو بين ذلك أجملّ أمرا².

1- قدّم الفراء تصرفاً آخر في التركيب هو: "فَيَتَعَلَّمُونَ" ليست بجواب لقوله "يُعَلِّمَانِ"، إنما هي مردودة على قوله "يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ"، متغافلاً عن أنّ نص الآية "فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا" وليس "فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمْ"، راجع الفراء: معاني القرآن، ج1، ص64.
2- بشار بن برد: الديوان، شرحه ورتب قوافيه وقدّم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1993، ص528.

3- الاتّسع في رد المعنى القرآني بقصص الأوائل أو خطيئة الملائكة:

يبدو أنّ جميع الاجتهادات في نصّ الآية قراءة وتركيبا السالف ذكرها لم تمكّن المفسّر من قطع حبل الوصل بين الملكين هاروت وماروت وبين السّحر. ويعود ذلك لسببين أولهما تصريح الآية بتنزيل السّحر على الملكين هاروت وماروت، وثانيهما شيوع قصة صلة الملائكة بالسّحر وبتعليمه في المحضن الثقافي قبل الإسلام وبعده. وقد قاد ذلك إلى تداول المفسّرين قصّة خطيئة الملائكة بتنويعات مختلفة.

يعدّ تفسير الطبري من أوّل المصادر العربية والإسلامية التي نقلت هذه القصة، وليست مختلف الروايات اللاحقة سوى تنويعات في تفاصيل هذه القصة، لذلك اخترنا رواية الطبري. وفي ما يلي نصّ هذه الرواية: "لمّا وقع الناس من بعد آدم في ما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء: أي رب، هذا العالم إنّما خلقتم لعبادتك وطاعتك، وقد ركبوا الكفر وقتل النفس الحرام وأكل المال الحرام والسّرقة والزنى وشرب الخمر، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم. فقيل لهم: اختاروا منكم ملكين أمرهما بأمري وأنهما عن معصيتي. فاخترتا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض وجعل بهما شهوات بني آدم. وأمرا أن يعبدا الله ولا يشركا به شيئا، ونهيا عن الكفر وقتل النفس الحرام وأكل المال الحرام والسّرقة والزنى وشرب الخمر. فلبثا على ذلك في الأرض زمانا يحكمان بين الناس بالحق، وذلك في زمان إدريس، وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في سائر الناس كحسن الزهرة في سائر الكواكب. وإنها أتت إليهما فخضعا لها بالقول وأرادها على نفسها فقالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثلاث: إما أن تعبدا الصّنم أو تقتلا النفس أو تشربا الخمر فقالا: كل هذا لا ينبغي وأهون الثلاثة شرب الخمر. فسقتهما الخمر حتى إذا أخذت الخمر فيهما وقعا بها، فمرّ بهما إنسان وهما في ذلك فخشيا أن يفشي عليهما فقتلاه. فلمّا أن ذهب عنهما السكر عرفا ما وقعا فيه من الخطيئة، وأرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا. فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه من الذنب فعجبوا كلّ العجب وعلّموا أن من كان في غيب فهو أقلّ غشية. فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض. وإنهما لمّا وقعا في ما وقعا فيه من الخطيئة قيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة فاخترتا عذاب الدنيا فجعلتا ببابل فهما يعدّبان (...) فإذا أتاهما يعني هاروت وماروت إنسان يريد السّحر وعظاه وقال له: لا تكفر، إنّما نحن فتنة. فإنّ أبي قال له: انت هذا الرّماد فبئّ عليه. فإذا بال عليه خرج منه نور يسطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان، وقيل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء منه فذلك غضب الله. فإذا أخبرهما بذلك علّماه السّحر." وأنزلت إليهما الزهرة في صورة امرأة من أهل فارس وكان أهل فارس يسمونها بيذخت. و"أتهما امرأة تخاصم زوجها، فأعجبهما حسنها، واسمها بالعربية الزهرة وبالنبطية بيذخت واسمها بالفارسية أنهايد." و"فلما جاءت تخاصم زوجها ذكرا إليها نفسها فقالت: ما أنا بالذي أفعل حتى

تخبراني بأي كلام تصعدان إلى السماء؟ فأخبرها فتكلمت فصعدت فأنسأها الله ما تنزل به فبقيت مكانها وجعلها الله كوكبا فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها وقال: هذه التي فتنت هاروت وماروت¹.

يجدر بنا قبل تحليل هذه القصة أن نشير إلى مصادرها المحتملة، وهو مبحث قد خاض فيه بعض الدارسين. لقد دفع خلوّ التراث العربي الجاهلي من قصة هاروت وماروت هؤلاء الدارسين إلى ردها إما إلى مصدر يهودي أو إلى مصدر هندو-إيراني. إنّ الأصل الزرادشتي لهذين الاسمين² لا نقاش فيه بين الباحثين، وإنّما يتعلّق الأمر بأحداث القصة الرئيسية.

يمثّل جون سي ريفيز (John C Reeves) الاتجاه الأوّل، وقد حلّل في مقاله³ التشابهات بين القصة في التراث التفسيري الإسلامي وبين القصة كما وردت في "مدراس شمحاوي وعزازيل"، لكن أسبقية القصة الإسلامية (ق 10 م) على القصة المدراسية (ق 11 م) جعلته يفترض أصولا يهودية أقدم للقصة، وجدها في مصدرين أساسيين هما سفر أخنوخ: النبي إدريس (ق 1 م) وكتاب اليوبيلات (ق 2 أو 3 ق.م) على ما بينهما من اختلاف يكمن في أنّ هبوط الملائكة إلى الأرض في سفر أخنوخ كانت غايته اجتياح الأرض والتمتع بنساءها الجميلات، بينما كانت الغاية من هبوط الملائكة في كتاب اليوبيلات الإرشاد والوعظ. وقد دفعه ذلك إلى ترجيح صلة القصة الإسلامية بقصة كتاب اليوبيلات، فعمد إلى تحليل الأسماء التي أطلقتها القصة على المرأة، فوجد تشابها في الاسم "نوعام" (زوجة أنوش) في كتاب اليوبيلات ومعناها الفاتنة، ويقابله في القصة الإسلامية غواية المرأة للملكين، ووجد كذلك تشابها في الاسم "أزورا" (أخت/زوجة شيث)، ويقابله في القصة الإسلامية اسم الزهرة. أما نقطة الالتقاء الأساسية بين التراثين الإسلامي واليهودي فيحدد هذا الباحث في احتواء القرآن والتوراة على الشرارة المولدة للقصة: ربط الإدانة الملائكية للبشر بخلق آدم وتكريمه من قبل الله وأمر الملائكة بالسجود له⁴. ولما كانت الأسماء والأحداث ليست متشابهة بين قصص المفسرين المسلمين والقصص الحاخامية، فإنّ الباحث قد عزا ذلك إلى طبقات النصوص الشفهية والمكتوبة، وإلى

1- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج 1 ص 526-530. راجع كذلك: الكسائي (أبو بكر محمد بن عبد الله): كتاب المبتدأ في قصص الأنبياء، دراسة وتحقيق بندر بن فيحان بن محمد الزايد، المملكة السعودية، جامعة أم القرى، 1428 هـ، ص 165-167.

كذلك الثعلبي النيسابوري (أبو إسحاق): عرائس المجالس، ص 30-32.

2- راجع مثلا قول زرادشت: "هذا ما أسألك عنه يا أهورا فأصدقني القول: هل سأبلغ غايتي من خلالك يا مازدا وعساني أن أكون معك، وعسى أن يكون صوتي مؤثرا كي يتحد هورفيتات مع أميرتات ويتحدان مع أشا وفقا لمشيئتك" أفستا:هايتي 17/44، ضمن أفستا، إعداد خليل عبد الرحمان، روافد للثقافة والفنون، دمشق، ط 2، 2008، ص 79. وهورفيتات في الزرادشتية موكل على المياه أمّا أميرتات فموكل على النبات، ومن ثمّ تلازمهما. ولا شكّ في أنّ النبات والماء يتعلقان بالطبّ والشباب (مقاومة الموت) ولذلك أبعاد سحرية. وورد ذكرهما في المانوية باسمي هاروت وماروت، وفي الثقافة الأرمنية هوروت وموروت: زهرتان متلازمتان يتم نفعهما في مصفاة سحرية بمناسبة الاحتفال الصيفي، وفي التراث البهلوي ورد ذكرهما باسمي خورداد ومورداد.

3- John C Reeves: Some Parascriptural Dimensions of the Muslim "Tale of Hārūt wa-Mārūt", in Journal of the American Oriental Society, n 135 (2015), Pp 817-842

4- القرآن، البقرة/30، وفي العهد القديم: سفر التكوين 6:1-6: ﴿وَحَدَّثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الْأَرْضِ، وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ، أَنَّ أَبْنَاءَ اللَّهِ رَأَوْا بَنَاتَ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لَأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا... وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الْإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّهَا هِيَ شَرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ. فَحَزَنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانُ فِي الْأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. وَفِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، رسالة يهوذا: 6: وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ لَمْ يَحْفَظُوا رِيَاسَتَهُمْ، بَلْ تَرَكُوا مَسْكَنَتَهُمْ حَفِظَهُمْ إِلَى دُبُونَةِ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ بِقِيُودِ أَبَدِيَّةٍ تَحْتَ الظَّلَامِ.﴾

تعرّضها إلى التحوير الدائم مما جعل مسارها مسارا جينولوجيا. وقد انتهى الباحث إلى ترجيح احتمال مفاده "أنّ التوراة والقرآن إنّما يعيدان بناء قصة موروثه عن الأجيال الأولى من البشر تدور حول علاقة البشر بالكائنات السماوية وحول أصل بعض الممارسات مثل السحر وعلم المعادن"¹.

إنّ قراءة هذا الباحث قد بدت لنا على عمقها منحازة إلى ربط القصة الإسلامية بكتاب اليوبيلات العبري، رغم ما في سفر أخنوخ من تشابه وطيد بالقصة الإسلامية. لقد نظر الباحث إلى القصة الإسلامية بوصفها قصة في هبوط الملائكة، بينما هي قصّة في تعليم الملائكة السّحر للبشر. وهذا وجه التقاطع الأساسي مع القصة في سفر أخنوخ². أما عن الأسماء، فإننا نلاحظ أنّ سفر أخنوخ قد احتوى على اسمي الملاكين أريوك وماريوك وعلى صلتهما بالأرض³، وإن كان في غير سياق صلة الملائكة بتعليم البشر السحر. وليس من المستبعد في رأينا أن يحوّر القرآن أو القصّ الإسلامي من وظائف الملائكة⁴. ثمّ إنّ القول باختلاف سبب تدخّل الملائكة في شؤون الأرض في كتاب اليوبيلات عنه في سفر أخنوخ لا يبدو لنا وجيها بما أن شهوة النساء قد جمعت بين الروايتين⁵.

أما الاتجاه الثاني فيمثله ج. دوميزيل (George Dumézil) الذي خصّص فصلا من كتابه حول نشأة الملائكة لهاروت وماروت⁶. وقد تبين له أنّ اسمي هاروت وماروت في الأفسستا قد تمّ استبدالهما بأسطورة التوأم ناساتيا الملائكة الأرضية المكلفة بالطبّ في المهابارتا. والجامع بين هاروت وماروت هو هذا الدور القائم على بعث الشباب ومقاومة الموت. وقد بيّن دوميزيل التشابه الشديد بين الأسطورة الهندية والأسطورة الإسلامية: تروي الأسطورة الهندية أن الأميرة سوكانيا تزوجت من الزاهد العجوز سيافانا. وذات يوم، شاهد الناساتيا

1- John C Reeves: Some Parascriptural Dimensions of the Muslim "Tale of Hārūt wa-Mārūt", p 842.

2- "وحصل أنه حين تكاثر البشر ، ولد لهم بنات جميلات غضات ، نظر إليهنّ الملائكة أبناء السماء واشتهوهنّ وقال الواحد للآخر: لنختّر نساء وسط البشر ونلد أولادا ... ضمن إعلان الدينونة الأخيرة. 6: 1-2 و "أخذوا لهم نساء وشرعوا يقربوهنّ ويتدنّسون بهنّ وعلموهنّ العقاقير والسحر وعلم النبات وأروهنّ الأعشاب... وشرعوا كلّهم يكشفون الأسرار لنسائهم (1: 7).

3- "فأنا أمرت ملاكيّ أريوك ومريوك الذين جعلتهما على الأرض ليحفظاها ويدبّرا الأرضيات ، أن يحفظا ما كتبت يد أبويك (آدم وشيث) فلا يهلك في الطوفان الذي سأتي به على نسلك " 33: 8 ص 13 . ويمكن في اللغة العربية استبدال الهمزة بالهاء (كما في أراق وهراق) فيكون اسم أريوك : هاريوك. ويمكن أيضا استبدال الكاف بالتاء كما في قول الراجز: "يا ابن الزبير طالما عصيكا " أي عصيت ، راجع ابن جني (أبو الفتح عثمان): سر صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق حسن هنداي، دار القلم، دمشق، ط 2، 1993، ص 280. والبغدادي (عبد القادر، ت 1093 هـ): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دت، ج 4، ص 428-430 (الشاهد الحادي والعشرون بعد الثلاث مائة).

4- يبدو أنّ الآية: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ.. ﴾ (البقرة 2/97) قد نزلت في سياق حجاج اليهود حول اتخاذ النبي جبريل جهة علم بالوحي بدل ميكائيل ، راجع كذلك الطبري: جامع البيان، ج 1، ص 496-501.

5- قارن بين سفر أخنوخ: "وحصل أنه حين تكاثر البشر، ولد لهم بنات جميلات غضات ، نظر إليهنّ الملائكة أبناء السماء واشتهوهنّ وقال الواحد للآخر: لنختّر نساء وسط البشر ونلد أولادا ... ضمن إعلان الدينونة الأخيرة. 6: 1-2، وكتاب اليوبيلات: "حين بدأ الناس يتكاثرون على وجه الأرض وولدت لهم بنات ، رأى ملائكة الرب أنهم جميلات المنظر فأخذوا منهن نساء فولدن لهنّ بنين هم الجبابرة وتزايد العنف على الأرض فأفسدت" (يوبيلات 1/5-5).

6- George Dumézil :Naissance d'archanges, essai sur la formation de la théologie Zoroastrienne; Gallimard, 3^{eme} ed, 1945, Chap V. Haurvatat-Amaratat, Armaiti, Pp157-180.

سوكانيا تستحم عارية فعبراً لها عن شهوتها فتمتعت. عرضا عليها أن يعيدا إلى زوجها شبابه فقبلت. غطسها في بحيرة فخرج شابا على صورتها. فكان على الأميرة أن تختار واحدا من الثلاثة، اختارت بقلبها فاخترت زوجها. وقد كافأهما الزوج الزاهد سيافانا فسقاها الشراب المقدس "السوما" وارتفعا إلى مقام الآلهة. وتنتهي الأسطورة الهندية بالتأكيد على غواية الشهوة: في الخمر، وفي المرأة، وفي النرد، وفي الصيد¹. وقد أضاف دو مناش (J. P. de Menasce) أن التقاطع بين القصة الإسلامية والقصص الهندو-إيرانية يمكن الوقوف عليه من خلال الاشتراك في اسم "أناهيدا" وهي في الأفيستا ربة المياه وإلهة الخصب، وهي الاسم الفارسي لكوكب الزهرة². وانتهى إلى التأكيد على "أن الأسطورة الهندو-إيرانية المتعلقة بهاروت وماروت قد انتقلت انطلاقا من وسط يتكلم لهجة الشمال (اللهجة الصغدية)، وفي بداية عصر الساسانيين، إلى الفضاء العربي المحمّدي في استقلال تام عن القصص الأخنوخية المتعلقة بسقوط الملائكة، بما أن القرآن يجهل الأسماء السامية لهؤلاء الملائكة"³.

صحيح أن التشابهات بين أحداث القصة الهندو-إيرانية وبين القصة الإسلامية لافتة، فضلا عن التشابه في أسماء الملكين، فإذا أضفنا إلى ذلك حضور أناهيدا في الأفيستا بوصفها مغوية حيناً، وبوصفها النصيرة على السحرة⁴، أمكننا الميل إلى ترجيح استعارة التراث العربي والإسلامي واليهودي قصة هاروت وماروت من التراث الزرادشتي وتنويعاته في بلاد فارس، وذلك بعد إكسابها بعدا عقائديا: عقاب الملكين المخطئين في القصة الإسلامية واليهودية، وتكريمهما في القصة الهندو-إيرانية. يمكننا أن نعثر على إرهابات هذه القصة في التراث الجاهلي، وذلك من خلال مجموعة من الإشارات الملتبسة، منها:

-الربط بين قصة هاروت وماروت في القرآن وبين قصة سليمان، ومعلوم أن القصص عن سليمان شائع عند الجاهليين. ويذكر الأعشى أن سليمان قد سخر من جنّ الملائك تسعة⁵، قد يكون هاروت وماروت منهم.

1- Ibid., p 166.

2- P. J. de Menasce: Une légende indo-iranienne dans l'angéologie judéo-musulmane : à propos de Hrt et Mrt , dans revue de la Société Suisse-Asie, 1947, n1-2, Pp10-18.

3- Ibid, p17, voir aussi G. Vajda: HÁRÛT wa MÁRÛT, dans Encyclopédie de l'Islam, 2ème ed, t III , Pp 243-244.

4- أفستا، إعداد خليل عبد الرحمان، روافد للثقافة والفنون، دمشق، ط 2، 2008. ونلاحظ أن الياشت 5 برمتها ابتهاالات لأناهيدا أو "أردفيسورا أناهيدا": ربة المياه أناهيدا. ولئن كانت أناهيدا تعني الطاهرة، وتوصف في هذا الياشت عموما بأنها طيبة قوية، فإن المقطع 127/5 يصفها بأنها مغوية، وتصفها المقاطع 13/5 و22 و26 بأنها النصيرة على السحرة، راجع أفستا، ص 409-431. وفي هاتين الصفتين ما يقربها من الزهرة في القصة الإسلامية.

5- (الطويل): ولو كان شيء خالدا ومعمرا لكان سليمان البريء من الدهر

براه إلهي فاصطفاه عبادة وملّكه ما بين ثريا إلى مصر

وسخر من جنّ الملائك تسعة قياما لديه يعملون بلا أجر

ضمن الرازي (أبو حاتم): الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، تحقق حسين بن فضل الله الهمداني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط 1، 1994، ص 359. والأبيات المذكورة كذلك ضمن ثعلب (أبو العباس): الصحح المنير في شعر أبي بصير، طبعة

-الربط بين تسمية أمية بن أبي الصلت الثقفي القمر أو غلاف القمر باسم الساهور¹، وهو اسم السماء في الأرامية²، وبين تسمية الملائكة المخطئين في التراث اليهودي بالساهرين³.

-الربط بين هذه القصة وبين الأحاديث المنسوبة إلى النبي أو إلى صحابته في سب الزهرة لأنها فتنت هاروت وماروت⁴، وهي أحاديث تحاور لا شك التراث الجاهلي.

صفوة القول إذن، أننا إزاء قصة قد اغتنت من التراث الزرادشتي والهندي واليهودي والجاهلي، لكنها قصة إسلامية لأنها تحاور آية قرآنية وتحلّ البعض من إشكالياتها. فالقصة برمتها هي ضرب من الاتساع في تفسير القرآن⁵. وهو اتساع قد تلون بجملته من الملامح التالية:

-إن القصة تتنزل ضمن قصة الخلق عامة، نعني خاصّة غير الملائكة من آدم ومن استخلاف الله له في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/30)⁶. وهي تجيب بشكل من الأشكال عن معضلة الشرّ الأدمي: لو ركبت في الملائكة الشهوة لارتكبوا الشرّ مثلما حصل لهاروت وماروت. ونعني كذلك تركيب القصة على شكل قصة نزول آدم إلى الأرض بسبب عصيانه⁷. ومن ثمّ فإنّ هذا الاتساع في تفسير الآية 102 من سورة البقرة إنما هو من باب تطوير نواة القصة القرآنية عن غير الملائكة من آدم واتهامه بارتكاب الآثام، وهو كذلك من باب محاكاة قصص آدم القرآنية.

- أدلف هلهوسن، 1927، ص 243، قطعة رقم 134. ونشير إلى أنّ ديوان الاعشى المطبوع خال من هذه الأبيات. انظر كذلك النابغة الذبياني: الديوان، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 1996، ص 12-13.
- 1- أمية بن أبي الصلت الثقفي: الديوان، دراسة وتحقيق بهجة عبد الغفور الحديثي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي 2009، ص 179، وفيه: (الكامل) والشهر بين هلاله ومحاقه أجلّ لعلم الناس كيف يعدّد لا نقص فيه غير أنّ خبيئه قمر وساهور يُسلّ ويُعمد
- 2- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي 1955، ج 6، ص 481.
- 3- جاء ضمن سفر أخنوخ، قسم صعود أخنوخ إلى السماء، ما يلي: هؤلاء هم الساهرون الذين انفصلوا بأنفسهم. رئيسان يمشي في إثرهما مائتان. نزلوا على الأرض وتعاقدوا مع قبة جبل حرمون ليتدنّسوا بنساء البشر فتدنّسوا فحكم الله عليهم. وهؤلاء سيكون إخوتهم" سفر أخنوخ، صعود أخنوخ إلى السماء 3/18، وقال كتاب اليوبيلات مخبرا عن قينام: "وجد فيها تعليم الساهرين الذي به يمارسون العرافة بواسطة الشمس والقمر والنجوم في كل علامات السماء" يوبيلات 3-2/8.
- 4- جاء في تفسير ابن كثير: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لعن الله الزهرة فإنها هي التي فتنت الملكين هاروت وماروت"، تفسير القرآن الأعظم، دار الأندلس، بيروت، ط 5، 1984، ج 1 ص 243، وورد ضمن القصة المنقولة عن الطبري سابقا قوله: "فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها وقال: هذه التي فتنت هاروت وماروت".
- 5- تناول محمد عجينة مرامي المفسرين من إيراد هذه القصة، وهي مرام وعظمية أخلاقية تتمثل في الدعوة إلى العدل والى اجتناب المحرّمات، ومرام فلسفية تتمثل في الطبيعة الإنسانية الضعيفة وامتلاك القوة بواسطة الكلمة، وأثر الجسد (الزهرة) على العقل والروح (هاروت وماروت). وتقتن إلى تشابه بين قصة الملكين مع الزهرة وبين قصة عصيان آدم. انظر محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار محمد علي للنشر (تونس) ودار الفارابي (لبنان)، 2005، ص 205-216.
- 6- لعلّ إشارة ابن كثير في تفسير البقرة/30 إلى أنّ هاروت وماروت هما من اعترضتا على تكريم الله لأدم دالّة على الصلة بين الآيتين: البقرة/30 و102. انظر ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل): تفسير القرآن الأعظم، ج 1، ص 123-124.
- 7- نضيف إلى القصة القرآنية حول نزول آدم، حضور حواء في المتخيّل الإسلامي بوصفها المغوية لأدم، وبالتالي فإنّ الزهرة/أناهيد في القصة هي الوجه الآخر لحواء.

-إنّ القصة تجيب عن الحرج الأساسي في الآية المتعلق بجواز القول بارتكاب الملائكة الأثام عموماً، وإثم تعليم السحر خصوصاً. وهي إجابة قد استقام أمرها عند المفسرين من خلال نسبة هذا الإثم إلى الملكين بعد أن "تأنسنا": أي بعد أن نزلنا الأرض، وركبت فيهما الشهوة إلى النساء والخمر...وبالتالي فإنّ نسبة تعليم السحر إلى الملكين هي في حقيقة أمرها نسبة تعليم السحر إلى رجلين كانا قبل نزولهما الأرض من الملائكة. هكذا تمّ رفع الحرج المتمثل في التناقض بين هذه الآية وبقية الآيات في الملائكة المؤكّدة على عصمة الملائكة وطاعتها المطلقة للذات الإلهية. وتمّ كذلك رفع الحرج الناجم عن شبهة استخدام سليمان للسحر وقد عدّه القرآن نبياً. ولعلّ هذا هو السبب في بدء الآية برفع الكفر عن سليمان: "وما كفر سليمان".

-كثيراً ما يلقي الباحثون باللائمة على المفسرين في نقل "الإسرائيليات"، ومنها هذه القصة. لكنّ ما تقدّم يبيّن أن المفسّر لا يجد بداً من روايتها. فالسكوت عن رواية الآية لأمر بدء السحر واقترانه بالملكين هاروت وماروت وتعليمهما السحر للناس، يوقع في مطبّات كثيرة تتعلق بعصمة الملائكة، وهم نقلّة الرسالات السماوية، وتتعلّق هذه المطبّات كذلك بإباحة ممارسة السحر عامّة ما دام علما ملائكيّاً.

- تقحم القصة المرأة في باب شيوع السحر في الأرض. فهي أوّل من تعلّم علماً "يُصعد به إلى السماء"¹، وهي سبب حبس هاروت وماروت في بابل أي سبب استمرار السحر في الأرض. ويبدو لنا إقحام المرأة في قصة تعليم السحر ضرباً من الاستجابة للفكرة الشائعة القاضية بأنّ السحر "أكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء"². فإذا أضفنا إلى ذلك دعوة القرآن إلى التعوذ ﴿ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ (الفلق 4/113) تبين لنا أنّ إقحام المرأة في قصة هاروت وماروت هو من باب الجمع بين التصورات الشعبيّة وبين النصّ القرآني. وقد استعيض، بفضل هذه القصة، عن المذكّر (هاروت وماروت) بالمؤنث (الزهرة).

- إنّ القصة إذ تتناول النواة القرآنية وتتوسّع فيها، إنّما تجيب عن معضلة واجهت الفكر الديني هي معضلة التمييز بين أفعال السحرة وأفعال الأنبياء المعجزة. ف"لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات ممّا ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو ولا يبعد في السحر أن يستدقّ جسم الساحر حتى يتولّج في الكوّات والخوقات والانتصاب على رأس قصبه والجري على خيط

1- يرفد الطبري قصة الزهرة مع هاروت وماروت بقصة أخرى وفيها أنّ امرأة من دومة الجندل قدمت على عائشة حدّثة موت النبيّ تسأل عن شيء دخلت فيه من أمر السحر، قالت: "كان لي زوج فغاب عنيّ، فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها، فلما جاء الليل جاءني بكلّين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر حتى وقفنا ببابل، فإذا برجلين معلقين بأرجلهم فقالا: ما جاء بك؟ قلت: أتعلم السحر، فقالا: إما نحن فننة فلا تكفري فأبيت.....لن تريدي شيئاً إلا كان، خذي هذا القمح فابذري فبذرت، فقلت أطلعي فأطلعت....ثم قلت أخبزي فأخبزت. فلما رأيت أنني لا أريد شيئاً إلا كان سقط في يدي وندمت والله يا أمّ المؤمنين". جامع البيان، ج1، ص529-530.

2- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج2 ص35. ويورد القرطبي ص31 البيت التالي: أعوذ بري من النافثات في عضه العاضه المعضه، مسبوقة بقول ابن مسعود: كنا نسّمى السحر في الجاهلية العضه. وهو قرينة على شيوع فكرة التلازم بين النساء والسحر منذ الجاهلية. ولئن كانت هذه الفكرة قائمة على تمييز جنديّ، فإنها تعني أساساً ربط السحر بالعجز، وهو عجز يرتدّ إلى سيطرة الرجل على المرأة في المجتمعات التقليدية. وقد ربط أحد الدارسين المعاصرين بين السحر والمحنة في مجتمعات الخير المحدود. راجع أوين ديفيز: السحر، ص31-32.

مستدق والطيران في الهواء والمشى على الماء وركوب كلب وغير ذلك"¹. وهذا يوجب "قتل الساحر لأنه كافر بالأنبياء يدّعي مثل آياتهم ومعجزاتهم، ولا يتهياً مع هذا علم صحة النبوة إذ قد يحصل مثلها بالحيلة"². إنّ القتل لا يجيب عن سؤال الفرق بين أفعال السّحرة ومعجزات الأنبياء، لذلك تقوم القصة بتقديم إجابة ضمنيّة هي أنّ أفعال السّحرة من تعاليم ملكين مغضوب عليهما: "فجعلاً ببابل فهما يعدّبان... فإذا أتاهما يعني هاروت وماروت إنسان يريد السّحر..."، أما معجزات الأنبياء فمن تعاليم ملائكة مرضي عنهم.

4- خاتمة:

نخلص ممّا تقدّم إلى إقرار ما يلي:

- إنّ اتّسع المفسّرين في فهم الآية 102 من سورة البقرة، سواء باستخدام قراءة بديلة أو بالتصرّف في تركيب الآية أو برفد المعنى القرآني بقصص الأوائل إنّما هو اتّسع قد ألجأهم إليه الآية المشكّلة المُجمّلة أولاً، ومقالة القرآن في الملائكة ثانياً، وإشارة القرآن إلى اعتراض الملائكة على تكريم آدم ثالثاً، وسرد معجزات الأنبياء رابعاً. وبالتالي فإنّ مقالة المفسّرين قد بدت لنا من باب السّعي إلى الظفر بتفسير يحافظ على تناسق المعاني القرآنيّة المبتوثة في المصحف، وليست من باب التساهل في نقل "الإسرائيليات".

- إنّ المفسّر وهو يحاور الآية قد كان منشغلاً بالإرث الثقافيّ حول السّحر. وهو إرث يتعلّق بمنبع السّحر، وبصلة النساء بالسّحر. وكان كذلك منشغلاً بما يثيره السّحر في واقعه من إشكاليات مثل إشكالية الفرق بينه وبين المعجزات.



1- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج 1، ص 33.

2- المرجع نفسه، ص 32.

5- قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أفسستا، إعداد خليل عبد الرحمان، روافد للثقافة والفنون، دمشق، ط2، 2008.
- 2- أمية بن أبي الصلت الثقفي: الديوان، دراسة وتحقيق بهجة عبد الغفور الحديثي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي 2009.
- 3- أوين ديفيز: السّحر، تعريب رحاب صلاح الدين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 1، 2014.
- 4- ابن برد (بشار): الديوان، شرحه ورتب قوافيه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1993.
- 5- البغدادي (عبد القادر، ت1093 هـ): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.
- 6- بلقيس رزيقي: الملائكة والجنّ والشياطين في كتب تفسير القرآن، الدار التونسية للكتاب، ط1، 2017.
- 7- البوني (أحمد بن علي): شمس المعارف الكبرى، المكتبة الشعبية، بيروت، د.ت.
- 8- ثعلب (أبو العباس): الصبح المنير في شعر أبي بصير، طبعة أدلف هلزهوسن، 1927.
- 9- ابن جني (أبو الفتح عثمان، ت392 هـ): سر صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2، 1993.
- 10- ابن الحاج الكبير (محمد): تاج الملوك، نشر محمد علي المليجي، مصر 1316 هـ.
- 11- الرازي (أبو حاتم): الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، تحق حسين بن فضل الله الهمداني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط1، 1994.
- 12- الرازي (فخر الدين): التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990.
- 13- السجستاني (ابن أبي داود سليمان): كتاب المصاحف، صحّحه ووقف على طبعه آرثر جفري، المطبعة الرحمانية، مصر، ط1، 1936.
- 14- سفر أخنوخ.
- 15- ابن سليمان (مقاتل): تفسير مقاتل، تحقيق عبدالله محمود شحاتة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت-لبنان، ط1، 2002.
- 16- الطبري (محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتعليق محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001.
- 17- عبد الباقي (محمد فؤاد): المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ط2، 1988.
- 18- عجينة محمد: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار محمد علي للنشر (تونس) ودار الفارابي (لبنان)، 2005.
- 19- علي (جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي 1955.
- 20- الفراء (يحيى بن زياد): معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983.
- 21- القرآن الكريم.

- 22- القرطبي (أبو عبد الله): الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت. د.ت.
- 23--الكتاب المقدّس.
- 24--كتاب اليوبيلات.
- 25- ابن كثير: تفسير القرآن الأعظم، دار الأندلس، بيروت، ط5، 1984.
- 26-الكسائي(أبو بكر محمد بن عبد الله): كتاب المبتدأ في قصص الأنبياء، دراسة وتحقيق بندر بن فيحان بن محمد الزايدي، المملكة السعودية، جامعة أم القرى، 1428 هـ.
- 27-مجموعة من الباحثين: المصحف وقراءاته، بإشراف عبد المجيد الشرفي، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، المغرب-لبنان، ط1، 2016.
- 28--النابغة الذبياني: الديوان، شرح وتقديم عبّاس عبد السّاتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1996.
- 29-النوي (محمّد): الوحي من خلال مصنفات السيرة النبوية قديما وحديثا، نشر مؤسسة مؤمنون بلاحدود، المغرب-لبنان، ط1، 2018.
- 30-De Menasce, P.J: Une légende indo-iranienne dans l'angélologie judéo-musulmane : à propos de Hrt et Mrt, Dans Études asiatiques : revue de la Société, Suisse-Asie, 1947, n1-2, Pp10-18.
- 31-Donaldson, B. A: The Koran as magic, in The Moslem World,vol 27 (1937) pp. 254–66
- 32-Dumézil, G: Naissance d'archanges, essai sur la formation de la théologie Zoroastrienne ;Gallimard, 3^{ème} ed, 1945.
- 33-Mauss, Marcel: Sociologie et Anthropologie,13^{ème} ed Quadrige 2013.
- 34-Reeves, J. C: Some Parascriptural Dimensions of the Muslim "Tale of Hārūt wa-Mārūt", in Journal of the American Oriental Society, n 135 (2015), pp 817-842.
- 35--Vajda, G.: HĀRŪT wa MĀRŪT , dans Encyclopédie de l'islam, 2^{ème} ed, t III , p p 243-244.